

بيروت ، لبنان

٢٠٠٤

كنت في الثانية عشر من عمري عندما انتهيت أخيراً من قراءة «سيدّ الخواتم». في بيروت: هناك، العمارة طبقات معارك، وقصص سلطة.

مدينة تعيد بناء نفسها

إصفرارٌ حجارة

وهواءٌ قمعي^١.

تسكنُ بيروت في ذاكرتي كصور صغيرة:

مباني مُنفجرة، أفواه تنبح كلودات إدفارت مونك، وأجبال غسيل
ممتدة كخيوط بين الأسنان: قمصان معلقة من أعناقها،
ملابس أطفال، جميعها متدلّية في هواء بلسمي مُثقل.

عواميد كورنثية يمكنني لمسها. لون الورق القديم،
مرزخفة، تصعد من تقاطع مُستَم بالضباب والدخان.

ثقوب رصاص مرشوشة على حائط مظلل. لم ألتَمَس
السقوق الإسمنتية الباردة، بالرغم من حرّ المدينة.

عساكر في ملابس حربية، يستندون إلى بنادق سوداء بطول أذرعهم
كتمثيل خضراء، تحرس مطعم «ماكدونالدز»^٢.

ترميز سيارات الأعراس المتواصل: هكذا أريد أن
يكون عرسي - قافلة ضوءاء وصياح. لهذا فقط
أرغب باقتناء سيارة: موكب لتكشفي وتفكيكي^٣.

///



^١ لا وجود للتخطيط والتّخطيط في بيروت، التي وعلى الرغم من كونها مدينة حضرية، ما زالت تتبع التركيب العضوي للمدينة الإسلامية بطرق عديدة: شوارع مرصوفة بشكل مكثف، ينتهي الكثير منها بزقاق مسدود. يقال أن المدن الإسلامية تتسم بكونها «كتلة فوضى واضطراب لانظامية ولا شكل لها». وعلى الرغم من وجود عدد كبير من السكان المسيحيين - من الشائع وجود لحم الخنزير في قوائم المطاعم - فإن بيروت هي مدينة إسلامية في هيكلها. قبل اندلاع الحرب الأهلية في العام ١٩٧٥ (التي استمرت ١٥ عاماً)، كانت بيروت تعتبر أكثر مدينة عربية ذات طابع غربي في الشرق الأوسط. دمّرت الحرب معظم التطويرات والمشاريع الجديدة. لكن، عندما زرت لبنان في العام ٢٠٠٤، كانت بيروت تخضع لعملية إعادة الإعمار، وفي نظري أعيد إحيائها فعلاً. كان هذا عمل شركة «سوليدير» المساهمة، والتي تم تكليفها تطبيق خطة لإعادة بناء وسط بيروت الذي دمّر منه ما يقارب الـ ٨٠٪ خلال الحرب. كان رئيس وزراء لبنان حينها (والملياردير) رفيق الحريري هو المتحكم الرئيسي في شركة «سوليدير». أُغتيل الحريري العام ٢٠٠٥، ولا تزال «سوليدير» مستمرة.

^٢ أخبرتني أختي أنهم حاولوا تفجير مطعم «ماكدونالدز» مرات عديدة، إذ كثيرون هم اللبنانيون الذين يعتبرونه امتداداً للإمبريالية الأمريكية. في العام الذي زرت فيه لبنان، جرى ما لا يقل عن أربع محاولات تفجير مطاعم أمريكية في بيروت. منذ بداية احتلال العراق في العام ٢٠٠٣، وقّرت قوى الأمن الداخلي الحراسة المسلّحة للشركات الأمريكية وسفارات الدول الغربية.

^٣ في لبنان، كما في معظم بلدان العالم العربي، يجري التقليد بأن يسير الضيوف وراء العروسين في سياراتهم ويزمّرون. هو منظر معتاد في المشهد السمعي لمدينة بيروت.

/ / /



سلجوق، تركيا

مخدّرين من قلة النوم، وجدنا الفندق ولم نأخذ قيلولة،
بل اغتسلنا سريعاً وخرجنا متوجهين إلى إفسوس.

رأيت أشجار رمان وقطفت ثمارها المتفسّخة.
كانت معدتي مضطربة، فكانت من المرات النادرة
التي أقوم بتقشير ثمرة رمان للمتعة فقط.
لم ترغب «نال» بأن تأكل منها هي الأخرى، فالتقطنا البذور وحسب.

جميع النساء هنا يرتدين بناطيل من القماش المزركش بالأزهار،
كالنساء اللواتي كنّ يعملن في الحقول القريبة من منزل خالتي وخالي في يالوفا.^٤

عند عودتنا ليلاً، لاحظنا وجود رجل كان يتبعنا إلى الفندق،
متوتّرين، استدلينا على الطريق بواسطة خريطة مصغّرة.
كنا ننظر خلفنا قلقين ونهمس واحدنا لآخر: لا يزال هنا، لا يزال هنا.
طلبنا من مجموعة من النساء الوقورات أن نمشي برفقتهنّ من أجل أن نحتمي،
إلا أنهن لم يدركن ما نطلب وشعرنّ بالارتياح. هرعنا راكضين ولم يمسنّا مكروه.

/ / /



٤ تقع مدينة يالوفا في جنوب شرق اسطنبول، على بعد ساعة ونصف مروراً بالركب عبر بحر مرمرة. وهي مشهورة بحماماتها الحرارية، وبكونها إحدى أهم مناطق إنتاج المزروعات الأزهار.

/ / /



إفسوس

كلم اخترعت نصفه عندما رويته بعد استيقاظي:
منطق الأعلام يتواطأ مع تراكيب الكلام المقبولة.

السير في «مدينة» لم تعد مدينة، ولكن فيها طرقات،
مبادئ نخلٌ بها ولاشيء يدفعنا للدعاء، نمشي في منطقة مغلقة
مكتظة بأشجار عليق وتين ورمان،
محاكاة ببعضها البعض كصوف الفولاذ.

إذا استطعنا رسم خريطة لها،
هل يعني ذلك أنها فعالة وعملية،
أم مجرد

واضحة ومفروعة؟ وضوح القراءة عند امرئ هو خريشة خطوطٍ عند آخر.
أنقاض فوق أنقاض - رغم ذلك، فهي مدينة.
على الأقل هي تملك إسماً، إفسوس.

وفي تعجُّ في الصباح بجمهرةٍ من السياح والنحل - نحلٌ أحمر - زغبها
ملوّن كالحنة، أنيقة، قد تكون نطلات مسنة قصّدت
صالون تجميل استعداداً لحدثٍ ما؛ ربما حدث وصولنا.
قفزنا حولها وجثونا مسحورين.

مرهقة، رحت أهذي فأرى أزهاراً تزخرف جوانب جدران المدينة المائلة،
ومع غروب الشمس - غروب أركادي، كما وصفته «ناليني» -
أبصرتُ شبحَ عربيةٍ جليٍّ مددّ وعظمي البياض، يمرُّ مجتازاً السماء البرتقالية النيوتية.



أسطورة من كانت هذه؟

أغنية «أيكو أيكو» كانت عالقة في ذهني، من شريط موسيقى قدّمه لي «روبي» كهدية. فكان للنهار إيقاع يشبه بصوت مقرعة الطبول.

/ / /



مركز ميفلانا الثقافي

قونية^٥

سافرت من إسطنبول إلى قونية في الصباح الباكر بالقطار السريع، متعطشة للنوم. في الداخل توجد شاشات توضح باللون الأحمر سرعة القطار، بالكيلومترات، كان ذلك مثيراً. الفطور كان بندورة وزيتون وجبنة وعسل. من جهة الممر، كانت تجلس امرأة جميلة ردت أدق بها طوال الرحلة، أسترقُ النظر إليها بطرف عيني، وأحياناً أنظر إليها مباشرة.

في بداية الرحلة، مررنا بين جبال تحيط بجانب الطريق،
وإنما بخفاء، ذلك أن الضباب الكثيف كان يحجب كل ما من حولنا،
ضباب لم أر مثله كثافةً في حياتي. رقيق، ثابت،
وبل حساس حتى. بكيت، إجتاحني حبٌ هائل -

حبٌ لا يسكن
في أي من الكائنات الحيّة -
حب لم يكن « لـ » أو « من أجل »

بل حبٌ غامرٌ كالضباب. شعرتُ به بالقرب منّي، فوقي، من حولي،
في ثنايا ضباب الله، لكن لا، ليس هذا - لقد أدركت - وإنما ليس
بملكة الفكر، الإيمان لا ينسى الجسد.

كان المركز الثقافي^٦ أشبه برجل أبيض يرتدي بدلة بيضاء: لون أبيض طلب،
رقيم بدون التزام سياسي.^٧ أنا كنت ذرة غبار وقعت على الكوكب الخاطيء،
كلمات كُتبت بأداة خاطئة. إجابة مباشرة على السؤال، بما تشعرك الهندسة
المعمارية؟ لم يكن مفاصه بشرياً، من الأفضل وصفه^٨ بدون صور،
كشيء من تصميم «لو كوربوزيه»^٩، كان فارغاً، لكن ليس كفراغ الأرض -

كان يعكس وحدة شبيهة بوحدة الراشدين، خرجت من هناك بأسرع ما يمكن.

/ / /



^٥ نص باللغة الإنجليزية من ملصق إعلامية في مركز ميفلانا الثقافي:

«التاريخ المختصر لمركز بلدية ميفلانا الثقافي في مدينة قونية»

ان الحاجة إلى إقامة مكان يستضيف عشاق جلال الدين الرومي القادمين من جميع أنحاء العالم إثر سماع نداء الرومي «تعالوا»، كانت على جدول أعمال مدينتنا وبلدنا تركيا على مدار سنوات عديدة. بدأ البحث عن مكان داخلي في الثمانينات لتكرار نداء جلال الدين الرومي السنوي، الذي يستمر حتى اليوم منذ زمن بعيد، في مكان أكثر جمالاً وجاذبية. لهذا الهدف، عقدت مسابقة مشروع مركز ميفلانا الثقافي في العام ١٩٩٠. حاز مشروع الدكتور حسن شينير، الأستاذ في جامعة إسطنبول التقنية، على المرتبة الأولى من بين ٦٩ مشروع. تم وضع أساسات المبنى الذي تقفون أمامه الآن في العام ١٩٩٣؛ مع ذلك، لم يمكن إكمال إلا ١٠٪ فقط من المبنى خلال السنوات العشر الأولى من البناء. في العام ٢٠٠٣، وخلال زيارته إلى قونية، طلب رئيس وزراء جمهورية تركيا، صاحب السعادة السيد رجب طيب أردوغان، إتمام بناء المبنى في فترة زمنية قصيرة. لذلك، تولت بلدية قونية عملية تشييد المبنى عملاً بالبروتوكول الموقَّع مع وزارة الثقافة والسياحة التركية في العام ٢٠٠٤. وقد تم إكمال عملية البناء تحت إشراف بلدية قونية خلال فترة مئة يوم بفضل فريق ضم ألف شخص عملوا على مدار الساعة على الرغم من ظروف الشتاء القاسية. افتتح مركز ميفلانا الثقافي رئيس الوزراء السيد رجب طيب أردوغان في العام ٢٠٠٤. يمكن لأكثر من ٤٠٠٠٠٠ شخص الاستفادة سنوياً من مركز ميفلانا الثقافي للقيام بالعديد من الأنشطة. يقع لمركز بلدية ميفلانا الثقافي على مساحة ٢٨٢٥٥ متر مربع ضمن مساحة ١٠٠٠٠٠ متر مربع. تقع داخل المركز على قاعة السَّماع التي تتسع لحوالي ٣٠٠٠ شخص، وهي أكبر قاعة في العالم، بالإضافة إلى مدخل رئيسي وبهو يغطّي مساحة ٢٥٠٠ متر مربع، مساحات للمعارض، مكتبات قونية وميفلانا التخصصية، قاعة «سلطان ولد» التي تتسع لحوالي ٦٠٠ شخص، وعدد كبير من أقسام إدارة بلدية قونية. علاوة على ذلك، توجد قاعة سَماع داخلية وموقف للسيارات يتسع لـ ٤٠٠ سيارة. تتمنى لكم، زوّار قونية وأهلها، أن تستمتعوا بهذا المبنى المتميز والقادر على استضافة أنشطة مختلفة كل يوم من أيام السنة. - طاهر أكيورك، رئيس بلدية قونية».

^٦ في قاعة السَّماع الرئيسية، حيث كان البائعون يبيعون أغراضاً وتذكارات صوفيّة.

^٧ إن تاريخ الصوفية في تركيا هو تاريخ حافل ومفعم. في جمهورية أتاتورك التركية التي تأسست حديثاً، تم حظر تعاليم الصوفية وإغلاق مؤسساتها في العام ١٩٢٥.



هاجر العديد من الصوفيين إلى أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية السابقة، مثل سوريا وألبانيا والبوسنة، بهدف مواصلة ممارساتهم. مع ذلك، فقد تم إعادة تنشيط التعاليم المولوية (المعروفة بإسم التعاليم الصوفية، مع الدراويش المولوية) في منتصف الستينيات، عندما اعترفت الحكومة التركية بهم كوسيلة لجذب السياحة.

^٨ لا أستخدم مصطلح «غير إنساني» كحكم تقييمي، وإنما كحقيقة وصفية.

^٩ لم تغفل تركيا عن أطلال «لو كوربوزيه» المعمارية المستشرقة. ففي أيار/مايو العام ١٩١١، وفي زيارة للمدينة (ولكن قبل وصوله إليها)، كتب «لو كوربوزيه» عن ما كان يرغب لمدينة إسطنبول أن تكون: «أريد لإسطنبول أن تترجع على القرن الذهبي بيضاء وخام كالطباشور، وأريد للضوء أن يصبح على أسطح القباب التي تضخم كومة المكعبات اللبينة، وللمآذن أن تندفع صعوداً، وللسماء أن تكون زرقاء... تحت ضوء الشمس الساطع، أريد مدينة بيضاء بالكامل، على أن ينقطنها شجر السرو الأخضر. يجب على كل زرقة البحر أن تعكس زرقة السماء.»

/ / /



أضرحة

مادبا، الأردن^١

كانت نهاية الأسبوع، وشعرنا بأنه علينا أن نبحث عن شيءٍ ما. وجدنا
الأموات بواسطة خريطة رديئة حصلنا عليها من الفندق حيث توقفنا
لنستدل على الطريق.

شعور جميل أن نجد شيئاً بواسطة خريطة رديئة. أن ننظر إلى الصخور
ونسأل - هل هذه مجرد صخور؟ هل هي ملاذٌ للأموات؟ هل يمكن لجمودٍ أن يكون؟
مئوى للعمالقة؟

قال لي أندرو بينما كنت أتسلق العربة: «أنت صغيرة جداً». تجاهلت ذلك.

شعور بالخطأ، أن يكون بحودتك عربة تقودينها بعيداً عن الطريق ثم تعودين.
أن تبحثي، دون يقين أو تأكيد، إلى أن يتجلى أمام ناظريك، فتدركين.

تبوّلت على أحد القبور الذي اتخذت منه مذبأ لي من الريح ومن يولي.

/ / /



^{١٠} مقابر صخرية مؤلفة من جُجرات مفردة يعود تاريخها على الأرجح إلى العصر الحجري الحديث (حوالي ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ قبل الميلاد). وهي مصنوعة من بضعة أحجار قليلة مدعومة ومتعامدة مع أحجار مسطحة على شكل طاولة (أو سقف).

/ / /



هذه القمائد مأخوذة من مجموعة نور السامرائي الأولى «إل سيّريتو» التي صدرت عن دار «إنسايد ذا كاسل» للنشر في العام ٢٠١٨.

نور السامرائي هي شاعرة وكاتبة عراقية-أمريكية تعيش حالياً في مدينة نيويورك.